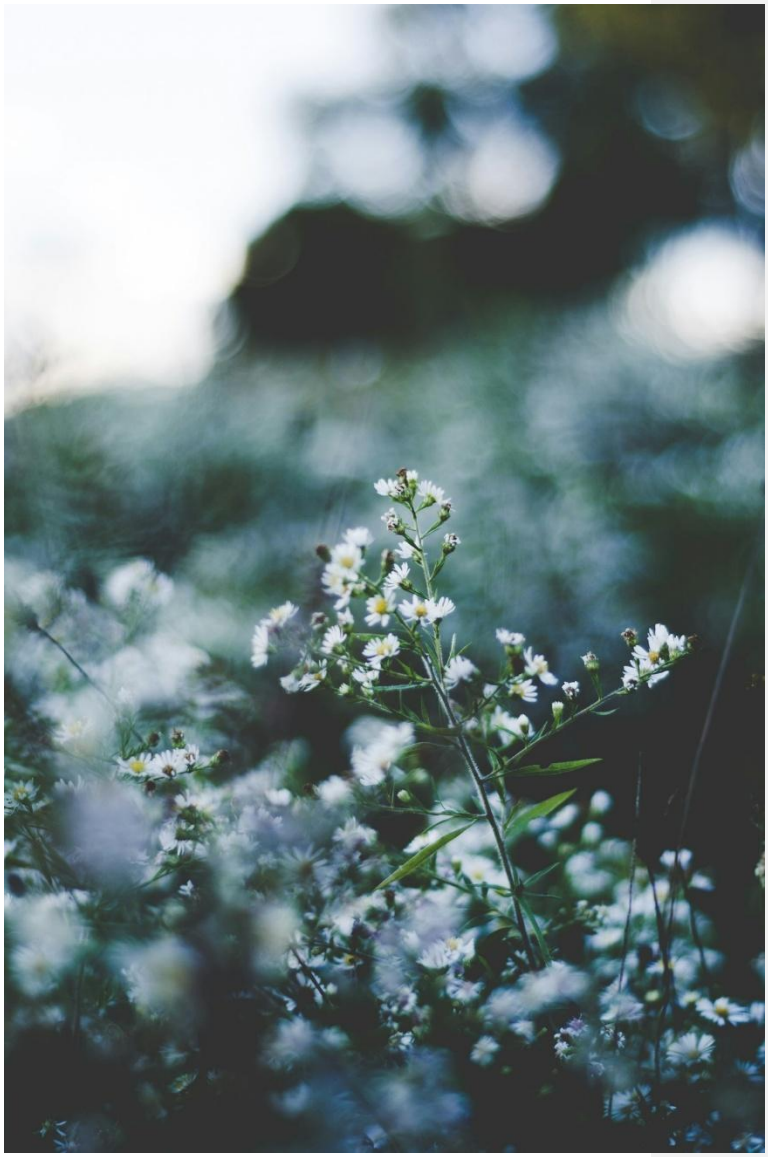

# تفريغ محاضرة

# بشائرُ مريمَ

رواء الاثنين | د.هند القحطاني

١٤٤٤/٢/٣٠هـ

**"بشائرُ مريمَ"**

**بسمِ اللهِ الرّحمنِ الرّحيم**

إنّ الحمد لله نحمده، ونستعينه ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيّئات أعمالنا، من يهدِه اللهُ فلا مُضِلَّ له ومن يضللْ فلا هادي له، وأشهد أنْ لا إله إلّا الله، وأشهد أنّ مُحمّدًا عبده ورسوله.

أمّا بعد:

حديثنا اليوم حول سورةٍ من السّورِ العظيمة التي لا تنتهي فوائدها، وهذه السّورة بالذّات -وجميعُ سورِ القرآن الكريم- كما قال ابن مسعود -رضي الله عنه-: **"مثلُ التّمرةِ كلّما مضغتَها ازدادتْ حلاوةً".**

إذ كانت هذه السّورةُ أوّلَ أسبابِ إسلامِ النّجاشي، عندما قُرِئتْ عليه أوائلُ آياتها، فذرفَتْ عيناه الدّموع، ورسمَ خطًا في الحصا، وقال: **"واللهِ ما جاوزَ عيسى بنَ مريمَ ما تقولون مقدارَ هذا الخَطّ"**، فكان مؤمنًا بنصرانيّته وبأنّ عيسى -عليه السّلام- نبيُّ الله، وليس إلهًا كما يزعُمُون.

نزلتْ سورةُ مريمَ في أحلكِ الأوقاتِ التي مرّتْ بالمسلمينَ في مكّةَ وأقساها، وكلُّنا يعلمُ أنّ دعوةَ النّبيّ عليه الصّلاة والسّلام كانت سرًا في البداية، ولم يكن يدعو إلّا القلائلَ من النّاس على خوفٍ من قريش، ثمّ جاءَه الأمرُ من السّماء أنْ أعلنْ، قال الله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾(الشُّعراء: ٢١٤).

فكان لِزامًا على النبيّ صلى الله عليه وسلّم أنْ يعلن، فصعدَ فوقَ الصّفا ونادى فيهم، وبدأتْ من هذه اللّحظة مرحلةُ العداءِ البيِّنِ بين المسلمين والكفّار؛ أمّا المسلمون فما عادوا يستخفُون بإسلامهم، وأصبحوا يُصلّون علانيةً، ويُؤذَوْن بتلك العلانية، وأمّا الكفّار فأعلنوا تعذيبهم.

عَنْ خَبَّابِ بْنِ الْأَرَتِّ، قَالَ: شَكَوْنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً لَهُ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ فَقُلْنَا: أَلَا تَسْتَنْصِرُ لَنَا أَلَا تَدْعُو لَنَا؟ فَقَالَ: "قَدْ كَانَ مَنْ قَبْلَكُمْ، يُؤْخَذُ الرَّجُلُ فَيُحْفَرُ لَهُ فِي الْأَرْضِ، فَيُجْعَلُ فِيهَا، فَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيُجْعَلُ نِصْفَيْنِ، وَيُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ، مَا دُونَ لَحْمِهِ وَعَظْمِهِ، فَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَاللَّهِ

لَيَتِمَّنَّ هَذَا الأَمْرُ، حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ، لَا يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ، وَالذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُم تَسْتَعْجِلُونَ"[1].

وفي هذا الوقت الذي كان المسلمون يذهبون إلى النّبي ﷺ ويقولون له: يا رسول الله! ألَا تستنصرْ لنا؟ فلا يجاوزُ النّبي عليه الصّلاة والسّلام أنْ يقولَ لهم: **"إنّ مَن كان قبلَكم كانوا يُنشرَون بالمنشارِ فلا يردُّهم ذلك عن دينهم شيئًا، اصبروا إلى أنْ يأتيَ أمرُ الله عزّ وجلّ".**

وكان من الطّبيعي أنْ نتوقّعَ نزولَ سورِ الجهاد والحرب والقتال، في هذ الوقت الذي اشتدّ فيه تعذيب المسلمين، لكن نزلتْ سورةُ مريم لحِكَمٍ نعلم بعضها، وبالتأكيد نجهل بعضها.

❖ **إنّ سورةَ مريمَ مليئةٌ بالدّروس والعِبَر، وسنقف عند بعضها:**

## أولًا: حُبُّ الله تعالى لعباده:

إنّ أولى الدّروس التي علّمتنا إياها هذه السّورة هي العلاقةُ بين العبدِ وربّه، لا العلاقةُ بين العبدِ وحبِّه وعبادتِه لربّه، ورجائِه له.

فعندما دعا زكريّا ربّه أنْ يرزقَه غلامًا في كِبَره مِن امرأتِه العاقر، فاستجاب الله تعالى له، وبشّره بأنّه وهبَه ما أراد، وجعل الفرحةَ تعُمُّ قلبَه وقلبَ زوجته، يقول الله عزّ وجلّ لزكريّا: ﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ﴾ (مريم: ٧).

ووعدَ الله تعالى يحيى -عليه السّلام- بالسّلام والأمان في حياته، وفي موته، ويوم يُبعَث من قبرِه حيًّا.

يقول عزّ وجلّ: ﴿وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ (مريم: ١٥).

[1] أخرجه البخاري في صحيحه.

وعندما تألّمتْ مريمُ وكرِهتِ الحياةَ أثناء الولادة وتمنّتِ الموت، قال جلّ جلاله: ﴿يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ (مريم: ٢٣)، وعلى الفور أمدَّها الله تعالى بالعون، إذ ناداها عيسى - وفي روايةٍ: جبريل- طالبًا منها ألّا تحزنَ فقد جعلَ ربُّها تحتها جدولَ ماءٍ، يقول عزّ وجلّ في الآية التي بعدها: ﴿فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ (مريم: ٢٤).

ففي لحظة الولادة، تلك اللّحظة العصيبة التي تجمعُ الألمَ النّفسيّ النّاتجَ عن خوف مريمَ من حملها خلافَ الطبيعة، مع الألمِ الجسديّ الذي لم يسبقْ لها أنْ عرفَتْه، وكأنّ الله تعالى يُسكّنُ قلبَها، ويعِدها بالخير، ويطلبُ منها أنْ تأكلَ من الرُّطَب، وتشربَ وتطيبَ نفسًا بالمولود، يقول تعالى: ﴿فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا﴾ (مريم: ٢٦).

وعندما جاء بنو إسرائيل إلى مريم بعد ولادتِها، وكلُّهم يقينٌ أنّها وَلَدتْ من حرامٍ، أرشدَ الله تعالى مريمَ بأنْ تشيرَ فقط إشارةً لمولودِها، واللهُ تعالى يتكفّلُ بتبرئتِها، فأنطقَ الله تعالى رضيعَها، يقول عزّ وجلّ: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾ (مريم: ٢٩).

ويدعو إبراهيمُ -عليه السّلام- ربَّه بعد يأسِه من أبيهِ وقومه دعاءَ الواثقِ بربّه الرؤوفِ الرّحيم، وفي هذا درسٌ عظيمٌ عن يقينِ العبد باستجابةِ ربّه في كلّ زمانٍ ومكانٍ، يقول عزّ وجلّ: ﴿إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾(مريم: ٤٧).

وتُختَتَم هذه السّورة بوعدٍ من الله -جلّ وعلا- للذين آمنوا به، واتّبعوا رسلَه، وعملوا الصّالحات وَفْقَ شرعه، بأنّه سيجعل لهم محبّةً ومودّةً في قلوبِ عباده، يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾(مريم: ٩٦).

كانت هذه آياتٍ متفرِّقةً من سورة مريم لِتعطيَكَ إلماحةً عامّةً عنِ الجوِّ العامِّ للسّورة، ولِتوضّحَ كيفيّةَ استجابة الله تعالى لعباده الصّالحين عندما يحتاجون إليه.

## ثانيًا: الشّعورُ بجلالِ قدرة الله تعالى:

ففي سورة مريم ثلاثُ ولاداتٍ مستحيلةٍ في الطبيعة البشرية، وجميعُ الأسباب تدلُّ على استحالةِ الحملِ، والولادة.

**فالأولى:** ولادةُ يحيى بنِ زكريا -عليهما السّلام- المذكورة في بداية السّورة، وأرجحُ الرّوايات تقول بأنّ عُمرَ زكريا كان حوالي تسعين عامًا، وعمرَ زوجته كان سبعًا وثمانين عامًا.

**والثّانية:** ولادةُ عيسى -عليه السّلام- الذي وُلِدَ من غير أبٍ، إذْ حملتْ به مريم بنفخةٍ روحيّةٍ، عُلويّةٍ، هذه النّفخةُ التي نفخها جبريلُ -عليه السّلام- فيها وقال اللهُ عزّ وجلّ "كُنْ"، قال الله تعالى: ﴿**إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ**﴾ (آل عمران: ٥٩).

**أمّا الثّالثة:** فهي ولادةُ إسحاق -عليه السّلام- ابنُ إبراهيمَ -عليه السّلام- من زوجتِه سارة.

قال الله تعالى: ﴿**وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ (٧١) قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ**﴾(هود: ٧١-٧٢).

إذن؛ لا يوجد شيءٌ مستحيلٌ على ربِّنا القويّ القدير، ولْتعلمْ أنّ هذه الأسباب -وغيرها- في الحياة لا يمكن أنْ تعملَ ولا أنْ تكونَ فاعلةً بلا مُسبِّب، ولا يمكن لأيّ إنسانٍ كائنٍ مَن كان أنْ يَستجلبَ -حتّى وإنْ امتلك الأسباب المادية- أيَّ نوعٍ من أنواعِ الرّزق؛ أموالٍ، بنينَ، صحّةٍ وعافية... إلخ، من دون إذنِ اللهِ العظيم جلّ جلاله.

فسيّدُنا إبراهيمُ -عليه السّلام- أُلقاه قومُه في النّار ليحرِقوه، فنجّاه اللهُ منها، قال اللهُ عزّ وجلّ: ﴿**قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ**﴾(الأنبياء: ٦٩).

فالنّار سببٌ للإحراق، لكنّ الله تعالى نزعَ منها هذا السّبب، وألغى خاصيَّتَها، فما عادتْ تُحرِق، والقرآنُ العظيمُ يعلّمُنا أنّ ما نظنّه مستحيلًا في الدّنيا ليس على الله تعالى بمستحيل، وهذا لا ينفي وجوبَ أخذِنا بالأسباب، بل يجب أن تأخذَ بالأسباب وتُعلّقَ قلبَك بالله تبارك وتعالى.

## ثالثًا- الاصطفاءُ:

والاصطفاءُ هنا **نوعان:**

١- **عامٌّ:** أنْ يكونَ على كوكبِ الأرضِ سبعةُ مليارِ إنسانٍ، مليارٌ ونصفُ مليارٍ فقط منهم مسلمون، فهذا اصطفاء. وأنْ تكونَ أنتَ مِن ضمنِ المسلمين فهذا اصطفاءٌ أيضًا. وأنْ يكونَ هناك مليارٌ ونصفُ مليارِ مسلمٍ، وفيهم مليارٌ فقط يصلّون -مثلًا- فهذا اصطفاء. وأنْ تكونَ أنت من ضمن مُقيمِي الليل، وأنْ تكونَ من البعيدين عن

المُنكرات والفواحش... فهذا اصطفاءٌ أيضًا، فانظرْ نفسَكَ -أخي المسلم- بأيّ دائرةٍ أنت؟ في الدّائرة الأكبر؟ أم في الثّانية؟ أم في دائرة المُصطفَين الأخيار؟

٢- **خاصٌّ**: أنْ يختارَك اللهُ عزّ وجلّ أنتَ بالذّات لتحملَ هَمَّ دينِه، ولِتدعوَ النّاس إلى ربّ النّاس، وأنْ تكونَ سببًا في هدايتهم، وأنْ تكونَ مفتاحًا للخير مِغلاقًا للشّرّ أينما وُجِدت، وأنْ تكون السّببَ الأوّلَ في حفظِ أولادِك القرآنَ الكريمَ واتباعِهم السُّنة الشّريفة... وهذا النّوعُ يكونُ للصّالحين الخَيِّرين من العباد، لذلك قال الله عزّ وجلّ لموسى -عليه السّلام-: ﴿وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾(طه: ١٣).

فتخيّلْ أنْ تكونَ أنت بالذّات مَنِ انتقاكَ المولى جلّ في علاه لِتكونَ الآمِر بالمعروف، النّاهيَ عن المُنكر! فرسول الله ﷺ يقول: "... فَرُبَّ مُبَلَّغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ.."[٢].

كما أنّه ﷺ كان يدعو بنضارةِ الوجهِ لمن سمعَ حديثًا واحدًا فبلّغه: "نَضَّرَ اللَّهُ امْرَأً سَمِعَ مِنَّا شَيْئًا فَبَلَّغَهُ كَمَا سَمِعَ.. "[٣]، وفي روايةٍ أخرى: "نَضَّرَ اللَّهُ امْرَأً سَمِعَ مَقَالَتِي فَبَلَّغَهَا"[٤].

وهذا الاصطفاءُ **الخاصُّ** هو الاصطفاء المذكور في **(سورة مريم)**، لذلك لم يُذكَرِ اسمُ نبيٍّ أو رجلٍ صالحٍ إلّا ويَذكُرُ اللهُ تعالى معَه سببَ اصطفائه.

لم يفتقدْ مريمَ أحدٌ من أهلها بعدما حملتْ وابتعدتْ عنهم؛ ذلك أنّها كانت تعيش الشّهورَ الطّويلةَ معتكفةً داخلَ المسجد تارةً، أو خارجَهُ تارةً أخرى، ولأنهم كانوا يعتقدون أنّها في أوقات خلوتِها للتّعبّد، كما أنّ الله تعالى قَرَنَ كثيرًا ذكرَ النّبيّ عيسى -عليه السّلام- بذكرها، فأيُّ شرفٍ لمريمَ أنْ تكونَ أشبهَ بالأنبياء.

---

[٢] أخرجه البخاري في صحيحه.

[٣] أخرجه التّرمذي في مسنده، وصحّحه الألباني.

[٤] أخرجه ابن ماجه في سننه، وصحّحه الألباني.

- منحَ اللهُ تعالى في سورة مريم كلَّ نبيٍّ صفةً مُلازمةً له:

- **يحيى عليه السّلام**: وصفه اللهُ عزّ وجلّ بأنّه عبدٌ خائفٌ مُطيعٌ لربِّه، مُؤدٍّ لفرائضَه، مُجتنِبٌ لمَحارمَه، بارٌّ بوالدَيه مُطيعٌ لهما، غيرُ عاصٍ ولا مُتكبّرٍ عن طاعةِ ربِّه، ولا عن طاعةِ والدَيه.

يقول عزّ وجلّ: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً ۖ وَكَانَ تَقِيًّا (١٣) وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا﴾(مريم: ١٣-١٤).

- **عيسى عليه السّلام**: جعله اللهُ تعالى عظيمَ الخيرِ والنّفعِ حيثما وُجِد، بارًّا بوالدتِه، ولم يجعلْه مُتكبّرًا أو شقيًّا عاصيًا لربّه، يقول عزّ وجلّ: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (٣١) وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ (مريم: ٣١-٣٢).

- **إبراهيمُ عليه السّلام**: جعله اللهُ تعالى عظيمَ الصِّدق، مِن أرفعِ أنبياءِ اللهِ تعالى منزلةً، لأنّه كان مُصدِّقًا مُتيقّنًا بالله تعالى، لذلك جعلَ اللهُ تعالى النّبوّةَ متأخّرةً عن الصّدق، يقول عزّ وجلّ: ﴿إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ (مريم: ٤١).

- **موسى عليه السّلام**: وصفه اللهُ تعالى أنّه كان مُخلَصًا؛ مُصطفًى مُختارًا، رسولًا نبيًّا من أولي العزم من الرّسل، فكلُّ الأعمالِ التي كان يقوم بها موسى -عليه السّلام- يريد بها وجهَ اللهِ تعالى، وهذا -واللهِ- ما يرفعُ الإنسانَ أو يحطُّه، يقول عزّ وجلّ: ﴿إِنَّه كَانَ مُخلَصًا﴾(مريم: ٥١).

- **إسماعيلُ عليه السّلام**؛ وصفه اللهُ تعالى بأنّه كان صادقًا في وعده، فما وعدَ أمرًا إلّا وفى به، فكان مَرضيًّا عنه عند ربّه، يقول عز وجلّ: ﴿...إِنَّه كان صادقَ الوعدِ﴾(مريم: ٥٤)، ثمّ يقول جلّ جلاله: ﴿وكانَ عندَ ربّهِ مَرضِيًّا﴾ (مريم: ٥٥).

- **إدريسُ عليه السّلام**؛ كان عظيمَ الصِّدق في قوله وعمله، فرفعَ اللهُ تعالى ذِكرَه في العالمين، ومنزلتَه بين المُقرّبين، يقول عزّ وجلّ: ﴿إِنَّه كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا (٥٦) ورَفعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾(مريم: ٥٦-٥٧).

فالصّدقُ -أخي المسلم- لا يُوضَع على عِلّةٍ إلّا أبرأَها، لذلك أخبرنا رسولُ ﷺ أنّ من صفات المُنافقين الغدرُ،

فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: "... وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ ... وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ "[٥].

- وفي نهاية هذا السّرد للأنبياء جاءَ وصفٌ عامٌّ لهم جميعًا، فقد أنعمَ اللهُ تعالى عليهم بفضلِه وتوفيقِه، وكانوا إذا تُتلى عليهم آياتُ الرّحمن المُتضمّنةِ لتوحيدِه وحججِه خرُّوا ساجدينَ لله تعالى خضوعًا، واستكانةً، وبكَوا من خَشيتِه سبحانه وتعالى، وكانوا -عند سماعِ آيات الله تعالى- تتغيّرُ أحوالُهم ظاهرًا وباطنًا.

يقول عزّ وجلّ: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نوح ومن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وإسرائيل وممن هدينا واصطفينا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾(مريم: ٥٨).

## رابعًا: تحريكُ الأشواقِ لله تعالى:

عندما يمُنُّ الله تعالى على عباده الصّالحين بالعطاءات؛ فإنّ أشواقَهم تشتعلُ بشدّةٍ لربّهم الكريم، وكذلك نحنُ القُرّاءُ عندما نقرأُ قَصَصَ الأنبياءِ في سورة مريم، لا نملكُ إلّا أنْ تتحرّكَ أشواقُنا لربّ العِزّة، لذلك لا بُدّ مِن مراجعة سورة مريم باستمرار، وحِفظِها، وقراءتِها غيبًا في الصّلاة، فإنّ في ذلك شعورٌ بلذّة الخشوع واندفاعِ الأشواق.

وكلُّنا يعرف ما فعلَ زكريّا-عليه السّلام- عندما رغبَ بإنجابِ ولد، فلم يقل: ربّ أصلحني أو أصلحْ زوجي -مثلًا- ولم يطرحْ أسبابَ المشكلة، لأنّه كان يخاطبُ الإلهَ القدير، بقلبٍ مُتذلّلٍ مُتيقّنٍ بامتلاكِ اللهِ تعالى مفاتيحَ كلِّ شيء، بل قال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي﴾ (آل عِمران: ٣٨).

لذلك قال النّبيّ ﷺ: "إِذَا دَعَا أَحَدُكُمْ فَلْيَعْزِمِ المَسْأَلَةَ، وَلَا يَقُولَنَّ: اللَّهُمَّ إِنْ شِئْتَ فَأَعْطِنِي، فَإِنَّهُ لَا مُسْتَكْرِهَ لَهُ "[٦].

فإذا دعا أحدُكم فلا يدعُوَنَّ وفي قلبه شكّ، بل يدعُ بيقينٍ بقدرةِ اللهِ تعالى على تحقيقِ كلّ شيء، وبظنٍّ حَسَنٍ بالله الكريم، وبإخلاصٍ مُنقطِع النّظير، لأنّ الإجابةَ من عند اللهِ وحدَه، والتّقصيرَ من عندِ العبد، ومِن هذا المفهومِ قال عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه: **"إنّي لا أحملُ همّ الإجابةِ، ولكنّي أحملُ همّ الدُّعاء".**

---

[٥] أخرجه البخاري في صحيحه.

[٦] أخرجه البخاري في صحيحه.

وعندما هدّدَ آزرُ ابنَه إبراهيمَ -عليه السّلام- بالرّجْمِ إنْ لم يتخلَّ عن دينِه الجديد، قال إبراهيمُ -عليه السلام-: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾(مريم: ٤٨).

فتأمّلْ ردَّ إبراهيم -عليه السّلام- لم يقل سأحرِقُ وسأرجمُ وسأحرمُ وسأنتقمُ... بل ابتعدَ عنهم لأنّه لا يستطيعُ التّعايشَ مع المُنكر.

وعندما اعتكفتْ مريمُ -عليها السّلام- واستعانت بالله تعالى، كان اللهُ تعالى خيرَ عونٍ لها.

ويوسفُ -عليه السّلام- عندما راودتْه امرأةُ العزيز عن نفسِه أبى وقدّم السّجن ظلمًا على بقائهِ حرًّا، قال تعالى: ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ﴾(يوسف: ٣٣).

وعندما ابتُليَ أيوبُ -عليه السّلام- وأصابه المرض، واستمرّ حوالي ثماني عشرةَ سنةً، يخرج فيها القيحُ من جسده،
وعندما علمَ قومُه بمرضه تهامسُوا: **"أين ربُّ أيوبٍ؟ لماذا لا ينقذه؟"**
وتساءل رجلان آخران: **"لعلّ أيّوبَ أذنبَ ذنبًا فلَمْ يغفرِ الله له؟"**

لكنّ أيّوبَ -عليه السّلام- استحى أنْ يطلبَ الشّفاءَ من الله تعالى بعدما أنعمَ عليه بالصّحة والعافية سنينَ طويلة، بل عرَّضَ بالقضيّة تعريضًا، فقال: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾(الأنبياء: ٨٣)، فجاءت الاستجابةُ.
قال تعالى: ﴿**فَاسْتَجَبْنَا لَهُ**...﴾ (الأنبياء: ٨٤).

### ❖ إلماحةٌ حول امرأةِ عمران، وحملِها بمريم:

مريمُ بنتُ عِمران هي سليلةُ أسرةِ آل عِمران، الأسرةُ المباركة التي سُمّيتْ إحدى سورُ القرآن الكريم باسمهم، وأُفرِدتْ سورةٌ أخرى لأحدِ أهمّ أفرادِها، وهي مريمُ البتول.

وكانتِ امرأةُ عِمرانَ -أمُّ مريم- قد قالتْ بعد أنْ حملتْ: **"يا ربّ جعلتُ ما في بطني خالصًا لك، لِخدمةِ بيتِ المقدس، فتقبّلْ منّي، إنّك أنتَ وحدَك سميعٌ لدعائي، عليمٌ بنيّتي".**

ولمّا أنجبتْ امرأةُ عمران مولودَها قالت: **"إنّي أنجبتُ أنثى لا تصلحُ للخدمة في بيت المقدس -لكنّ الله عليمٌ بمنفعتها، وسيجعل لها شأنًا-"** وقالت: **"ليس الذّكر في الخدمة كالأنثى، فالذّكرُ أقوى في ذلك"**، قال الحقُّ جلّ وعلا: ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي ۖ إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٥) فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾(آل عِمران: ٣٥-٣٦).

وبالفعل فإنّ مريمَ كانت عابدةً ناسكةً، وآثرتِ اللهَ تعالى على كلِّ شيءٍ، لذلك استحقّتْ تخليدَ اسمِها في القرآن العظيم.

وإذا عمّقْنا تفكيرَنا في مريم وأمِّها نستنتجُ دورَ المرأة العظيم في صلاح المجتمع، لأنّ المرأةَ تشكّلُ العاملَ المؤثّرَ الأقوى في الحياة، فإذا صَلُحَتْ صَلُحَ المجتمع، وإذا فسَدَتْ فسدَ المجتمع، يقول النّبيّ ﷺ: **"... وَالمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا ..."**[٧].

## ❖ بعضُ خصائصِ سورةِ مريم:

- تأتي سورةُ مريم بعد **(سورة الكهف)** في ترتيبِ المصحف الشّريف، وتبدأُ سورةُ الكهف بقصّة أصحاب الكهف، ثمّ بصاحبَي الجنتين، ثمّ بموسى والخضر، ثمّ بذي القرنين، وكلّها قصصٌ وأحداثٌ متتاليةٌ لأناسٍ يضربون في الأرض، ويدعون إلى دين الله، ثمّ تأتي سورةُ مريمَ وكأنّها استراحةُ مُحاربٍ، وكأنّ القرآنَ العظيم يخبرك أنّك إذا أردت أن تعرفَ أصلَ الدّعوةِ وسِرَّ النّجاة وطريقَ الفتوحات يكمنُ في سورة مريم، وفي سجودِ الخَلَوات، والعبادات السّرّية.

- نلاحظُ حضورًا واسعًا لرحمةِ الله في سورة مريم، إذْ تكرّرَ اسمُ الرّحمن فيها اثنتي عشْرةَ مرةً، ولذلك فإنّ من أسماء سورة مريم؛ **(سورةُ النِّعَم)**.

[٧] أخرجه البخاري في صحيحه.

- سورةُ مريم مقسَّمةٌ **لقسمين:**

**الأوّل:** يتكلّمُ عن الفيوضِ الرّحمانيّة على من أطاعَ الله عزّ وجلّ، وكيف أنّ الله تعالى استجابَ دعاءَهم.

**الثّاني:** يتكلّمُ عن من يقرّر ألّا يكونَ له نصيبٌ من تلك الرّحمات، وعن من يشاقق اللهَ ورسوله.

## ❖ إلماحةٌ حول الآياتِ الأولى من سورةِ مريم:

### الآيةُ الأولى:

﴿كهيعص﴾ (مريم: ١).

وهي حروفٌ مُقطّعةٌ اختلفَ كبارُ العلماء في تأويلها، وتحدَّى فيها اللهُ جلّ جلالُه العربَ الذين كانوا أعلامًا في الفصاحةِ والبلاغة، وإلى اليوم لا يوجدُ تفسيرٌ قطعيٌّ لها، وهذا لحِكمةٍ بالغةٍ يريدها الله تعالى.

### الآيةُ الثّانية:

﴿ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ عَبۡدَهُۥ زَكَرِيَّآ﴾ (مريم: ٢).

وهذا شرفٌ عظيمٌ لسيّدنا زكريّا -عليه السّلام- أنْ نسبَ اللهُ تعالى زكريّا لذاته، فقال: **(عبده)**، وهذا ما تحلّى به سيّدنا محمّدٌ ﷺ عندما نسبَه اللهُ تعالى لذاته عندما قال جلّ جلاله: ﴿سُبۡحَانَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾ (الإسراء: ١).

فالنّسبةُ إلى الله جلّ جلاله لا تأتي بشكلٍ عشوائيّ، بل إنّ صاحبَها يجب أنْ يكونَ قدِ امتثل لأوامر خالقِه عزّ وجلّ، وانتهى عن نواهيه، وكان قلبُه مطمئنًا، ويقينُه راسخًا، وأخلصَ دينه لله، واعتصم به سبحانه وتعالى.

ومِن اللّافتِ أنّ اللهَ تعالى ابتدأ السّورةَ بذكر الرّحمة العظيمة التي أنزلها الله تعالى على عبدِه الصّالح، وخلّدَها في القرآن لتكونَ عِبرةً لأولي الألباب على مرّ العصور.

## الآيةُ الثّالثة:

﴿إِذ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا﴾(مريم: ٣).

إنّ مِن رحمةِ الله تعالى بزكريّا أنْ مكّن ويسّر له دعاءَه سرًّا وخفاءً، إذ يُعدُّ هذا رحمةً في حدّ ذاته، لأنَّ ذلك أقرب للإخلاص وأرجى للإجابة.

وورد دعاءُ زكريّا -عليه السّلام- ثلاثَ مرّاتٍ في القرآن الكريم؛ في سوَر آلُ عِمران، مريم، الأنبياء، فخُلِّدَ اسمُ زكريّا -عليه السّلام- مُقترِنًا بالرّحمةِ التي أصابه الله تعالى بها، ذلك أنّه دعا وناجى ربّه سرًّا وخُفيةً، على الرّغم من انعدامِ أسبابِ الأرض، لكنّه دعا مُتيقّنًا بقدرة الله تعالى اللامحدودة، وبثقةٍ عميقةٍ بأسباب السّماء، وبحسنِ ظنٍ باستجابةِ الرّحمنِ لهُ.

- إنّ دعاءَ زكريا -عليه السّلام- الخفيَّ يحتوي **عدّةَ معانٍ:**

١- دعا ربَّه بهمسٍ، بانقطاعٍ وانعزالٍ عن البشريّة جمعاء، بخلوةٍ مع الله جلّ في عليائه، وبقلبٍ متيقّنٍ أنّ الله تعالى قريبٌ سميعٌ مجيبٌ.

٢- كان يطلبُ من ربّه شيئًا مُستحيلًا في عُرف البشر، فلم يكنْ يريدُ أنْ يسمعَه أحدٌ لِئلّا يُؤثّرَ عليه كونَه يطلب مستحيلًا وَفق العقل البشريّ.

٣- ظلَّ يدعو ربّه سنينًا بهذه الدّعوة، فلم يكن يريدُ أنْ يُثبّطَ عزيمتَه أحدٌ عن الاستمرار بدعائه، وعدم القنوطِ من استجابة الرّحمن له.

٤- لم يقُلِ اللهُ **(دعا)**،بل **(نادى)**، وفي هذا إشارةٌ إلى أنّه كان يدعو بكثرةٍ وتكرارٍ وإلحاحٍ.

٥- لم يكنْ يريدُ أنْ يُرِيَ ضعفَه وانكسارَه للنّاس، ولم يرِدْ أنْ يبلّغَ حاجتَه لغير قاضيها، ولم يعلّقْ مشاعرَه بغير مَن يملكُ أمرَها.

## الآيةُ الرّابعة:

﴿قالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً وَلَمْ أَكُنْ بِدُعائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ (مريم: ٤).

**"وهنَ العظمُ"**: وهن وضَعُفَ، وإذا ضَعُفَ العظم -الذي يُعدُّ عمادَ البدن- ضَعُفَ غيرُه ولذلك أحدُ السّلف كان يقول: **"ذهبتِ العافيةُ، ولا نستطيعُ أن نقومَ إلّا بالبقرةِ و آل عِمران"**، فإذا كان بحالةِ ضعفه يقوم بهاتين السّورتين فما بالك عندما كان قويًّا.

**"واشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا"**: لأنَّ الشّيبَ دليلُ الضّعف والكِبَر، ورسولُ الموتِ ونذيرُه، فتوسّلَ زكريّا -عليه السّلام- إلى الله تعالى بضعفه وعجزه، وهذا من أحبِّ الوسائلِ إلى الله، لأنّه يدلُّ على تبرئةِ العبد من حولِه وقوّتِه، وتعلُّقِ القلب بحولِ الله وقوّته.

**"وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا"**: لم تكنْ يا ربِّ تردُّني خائبًا ولا محرومًا من الإجابة، بل لم تزلْ بي حفيًّا، ولدعائي مُجيبًا، ولم تزلْ ألطافُك تتوالى عليَّ وإحسانُك واصلًا إليَّ وهذا توسُّلٌ إلى الله عزّ وجلّ بإنعامه عليه، وإجابةِ دعواتِه السّابقة، فسأل الذي أحسن سابقًا أنْ يتمّمَ إحسانَه لاحقًا، وهنا تظهرُ حقيقةُ المؤمن فيدعو بين جناحي الخوف والرّجاء.

وعندما يقول سيّدنا إبراهيم -عليه السّلام-: ﴿وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ﴾(الشُّعراء: ٨٤).

**"لسانَ صدقٍ"** أيْ: يجعلُ الله تعالى لك الذّكرَ الحسن في حياتك وبعد مماتك، وليستِ الغايةُ من ذلك أنْ يمتدحَك النّاس، ولكنْ كي يُدعا لك عند حضور ذكراك، فتبدأ الرّحماتُ تتنزّل عليك في قبرك، فحين ترى أناسًا يعتمرون أو يحجُّون عن علماءَ قد ماتوا قبل مئاتِ السّنين، ويقولون هذا لفلانٍ وهذا لفلانٍ.

فانظر كيف يحيي اللهُ ذكرَهم!

وعندما دعا سيّدنا موسى -عليه السّلام- ربَّه دعاه بضَعف الحال، قال: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ﴾(القَصص: ٢٤). أي: يا ربّ أنا فقيرٌ وأحتاج إليك، مهاجرٌ طريد، فمهما منحَك اللهُ القوّةَ فإنّك ضعيفٌ إليه، ومهما أعطاكَ من الأرزاقِ فإنّك فقيرٌ إليه.

فلا تدخلْ على الله تعالى في دعائِك وأنت جبّارٌ، فبعضُهم يقول: الحمدُ لله ليس هناك ما ينقصني، بل ادعُ الله ربّك بثباتِ النّعمة التي تتحدّث عنها ألّا يزيلَها اللهُ بلحظةِ ضَعفٍ، ادعُهُ بخضوعٍ وتضرُّعٍ كامل، وبذلٍّ وانكسارٍ صادق، ولا تجعلْ قلبَك يُقفِل بابَ الدّعاء، بل تمهّلْ، وارفعْ حاجتَك لباريها -وإنْ بقيتَ صامتًا- وألِحَّ بحاجتَك،

واعلمْ أنّ الله تعالى يستحي أنْ يردَّ يدَي عبده وهي مفرودةٌ له صِفرًا، وكُنْ على يقينٍ في لحظات الكربِ التي تمرُّ بها أنّه لن يُخرجَك منها إلّا اللهُ عزّ وجلّ.

وحين ترى أنّ حياتَك تسيرُ بنوعٍ من التّيسير والبركة، فقد يكون ذلك ثمرةَ الدّعاءِ السّابق، ولذلك على الإنسان أنْ يستمرَّ بالدّعاء كلَّ ليلةٍ، **وتلخّصُ هذه الدّعوات ما بين ثلاثةٍ:**

١- إمّا أنْ يستجيبَ اللهُ تعالى لك ويعطيَك إيّاها كما هي.

٢- وإمّا أنْ يدّخرَها اللهُ تعالى لك إلى يومِ القيامة.

٣- وإمّا أنْ يصرفَ اللهُ تعالى عنك الشّرّ أضعافَ ما كنتَ تظنُّ من الخيرِ الذي طلبتَه.

ولو خيّرَك الله تعالى لَمَا علِمتَ ما تختار.

فلا تعلمُ أين الخير، ولا التّوقيتَ المناسبَ لتحقيق دعوتك، ولا الحكمةَ من تأخيرها، ولكن المهمّ أنْ تدعوَ بهذا اليقينِ والصدقِ، وعندئذٍ ستصبح الدّعوات كالبلسمِ الشّافي، وسيطمئنُّ قلبُك.

## الآيةُ السّابعة:

﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾(مريم: ٧).

طلبَ زكريّا -عليه السّلام- ولدًا فبشّرَه الله تعالى بثلاثِ بشاراتٍ: أنْ سيصلحُ له زوجتَه، وستنجبُ في السّابعة والثّمانين من عمرها، وسيأتيهما ولدٌ يتمتّعان به، سمّاه الله تعالى **(يحيى)**،وهذا الاسمُ لم يكنْ من قبلُ على الأرض قاطبةً، وسُميَّ يحيى؛ لأنّه سيحيا حياةً حقيقيةً مملوءةً بالإيمان، ليس فيها ضعفٌ ولا وهَنٌ، سيّدٌ في قومه، مُبتعدٌ عن الشّهوات الضّارّة.

ختاما؛ تعلّمْ -أخي المؤمن- أنْ تبتهلَ بالدّعاء لربّك الكريم، وأنْ تلزمَ محرابَك، وتُكثِرَ خلواتِك مع ربّك العظيم، لا سيّما في مثلِ هذه الأيّامِ المليئةِ بالفتنِ والقتل، فالعبادةُ في الهَرْج كهجرةٍ إليه، فمنِ اختارَ أنْ يتعبّدَ اللهَ تعالى في الهَرْج كأنّما هاجرَ مع رسول الله ﷺ من مكّةَ إلى المدينة، مع الأنصارِ والمهاجرين الذي هاجروا معه.

وهكذا تُعلّمنا سورةُ مريم أصلَ الرّجوع إلى الله عزّ وجلّ.
أسال الله العظيم أنْ يجعلَني وإيّاكم ممّن عبَدَ الله سبحانه وتعالى واتّقاه، وأنْ يجعلَ خيرَ أعمالِنا خواتمَها، وخيرَ أيّامِنا يومَ نلقاه.
أقولُ هذا والحمدُ لله ربِّ العالمين، والصّلاةُ والسّلام على سيّد المرسلين، سيّدنا محمد صلى الله عليه وسلّم.

تنويه: مادة المحاضرة جمعت من مصادر عدة وجميع المحاضرات في المدونة ليست كتابة حرفية لما ورد في المحاضرة؛ إنما تمت إعادة صياغتها لتُناسب القرّاء وبما لا يُخلُّ بروح المحاضرة ومعانيها